ثالثاً : الانهزام الفكري عند مسلمي الأندلس:

يدرك المتتبع لتاريخ المسلمين أن الأمة الإسلامية لها شخصيتها المستقلة في عبادتها، ونظمها، وعاداتها وتقاليدها، ومنهج تفكيرها، بل وفي كل شؤونها، وهذه النظم التي تتكون منها الشخصية الإسلامية تنطلق كلها من مصادر التشريع الإسلامي، وإن لم يكن ذلك؛ فهي لا تتعارض معها أو تتنافى مع ما جاء فيها.

وحينما دخل الإسلام بلاد الأندلس، وانتشرت تعاليمه وتشريعاته في تلك الديار انصهر أهله في بوتقته حيث طبقوا تشريعاته في كل شؤون حياتهم، وقد بدا هذا الأمر واضحاً خلال القرون الثلاثة الأولى للوجود الإسلامي هناك؛ حيث صار ذلك المجتمع من أقوى المجتمعات الإسلامية تمسكاً بدينه، واعتداداً بشخصيته الإسلامية، وبهذا قال المقري: «ذكر غير واحد من علماء المسلمين ـ منهم ابن حزم ـ أن دولة بني أمية بالأندلس كانت أنبل دول الإسلام، وأنكاها في العدو، وقد بلغت من العز والنصر ما لا مزيد عليه»(١).

وبعد سقوط الدولة الأموية بالأندلس انتاب المسلمين الضعف في كل شؤون حياتهم ـ سنة الله في خلقه ـ، وكان الانهزام الفكري من الصور الواضحة لآثار الضعف المعنوي الذي منوا به آنذاك، وقد كان لهذا الانهزام أسباب وعوامل أدت إليه، كما كان له مظاهر وصور بدت واضحة في مجتمع المسلمين هناك؛ حيث أدركها كل من قرأ في التراث الفكري لأولئك القوم، فضلاً عمن عايشها أو اكتوى بنارها.

أما الأسباب والعوامل التي أدت إلى ذلك الانهزام فمن أهمها ما يأتي:

١ ـ ما حل بالمسلمين هناك من ضعف سياسي وعسكري جعلهم في مؤخرة

(١) نفح الطيب، ج ١، ص ٣٢٧.

القوىٰ السياسية والعسكرية في شبه جزيرة أيبيريا؛ إذ لم يعد لهم وزن في موازين القوىٰ، وقد تمخض عن ذلك خلل في تعامل المسلمين عامتهم وخاصتهم مع القوىٰ السياسية والعسكرية التي أصبحت أقوىٰ منهم، ويهددهم خطرها في كل وقت وحين.

ومن أجل تفادي هذا الخطر فقد ضعف المسلمون في قضية البراء من النصارىٰ[١]؛ حيث ظهرت موالاتهم واضحة، بل ربما تسابق كثير من المسلمين من أجل كسب ود القوىٰ النصرانية في تقديم الإتاوات والتنازلات لهم، وهذا بلا شك مما أزال كثيراً من الحواجز النفسية والسياسية بين الطرفين؛ ومن ثم لم يجد بعض المسلمين غضاضة في إظهار تأثرهم الفكري بل وربما إعجابهم بالنصارىٰ، ومن هذا المنطلق حضر المنذر بن يحيىٰ صاحب سرقسطة احتفالات النصارىٰ، كما جرىٰ بحضرته عقد مصاهرة بينهم، وقد فسر ابن عذارىٰ هذا التنازل من قبل المنذر بقوله: «وقد قيل إن رأي المنذر كان في ذلك أحصف ممن قدح فيه لنظره في صلاح وقته، وعلمه بانصداع عصا أهل كلمته؛ فآثر من الموادعة ما ستر به العورة وسدها بيسير الكلفة، وانخدع به عظيما الجلالقة ريمنده وشانجة المحدِّثان أنفسهما يومئذ بمناهضة أهل الأندلس، فألهاهما عن الحرب وحبب إليهما الدعة»[٢]، ولكن هذا التعليل والتفسير من قبل ابن عذارىٰ غير مقبول؛ إذ إن الأمر جلل، والقيمة المقدمة جزلة، كما أن من قدمت له غير مأمون العاقبة، وقد دلت الأحداث بعد ذلك علىٰ خلاف ما ارتآه ابن عذارىٰ.

٢ ـ ومما ساعد علىٰ ذلك الأمر مصاهرة المسلمين للنصارىٰ، ومخالطتهم لهم في أيام السلم والحرب؛ فقد كان عدد غير قليل من النصارىٰ يقيمون في كبريات

(١) انظر تفصيلات ذلك في الفصل الثاني من هذا الكتاب.
(٢) البيان المغرب، ج٣، ص ١١٧.

المدن الإسلامية بالأندلس[١]؛ حيث عاشوا بين ظهراني المسلمين فخالطوهم في شوارعهم ومنتدياتهم وتجارتهم بل في وظائف حكومتهم وبيوتهم، وهذا بلا شك كان له أثره السلبي على المسلمين هناك[٢]؛ حيث أدى ذلك الاختلاط المستمر إلى انتشار عادات النصارى وتقاليدهم بين أفراد المجتمع الإسلامي على اختلاف شرائحه، كما أدى إلى كسر الحاجز النفسي والمعنوي بين المسلمين والنصارى؛ مما سهل قبول بعض أفكار النصارى، وعدم تميز المسلمين بشخصيتهم الإسلامية المستقلة في بعض المواقع.

٣ ـ ومن العوامل الرئيسة ما مني به المسلمون من هزائم عسكرية قوية في ذلك العصر، مثل بربشتر، وقلمرية، وبلنسية، وطليطلة، وغيرها. وقد تمخض عن ذلك أسر أعداد كبيرة من المسلمين؛ حيث بقي أولئك الأسرى عند النصارى مدة ليست بالقليلة، فلما فك أسرهم عادوا إلى بلادهم، وقد تأثر بعضهم بما رأى وعايش من عادات نصرانية بل ربما تجاوز بعضهم التأثر إلى الإعجاب بما رأى؛ ومن هنا ظهر الانهزام الفكري لديهم[٣]. ويتأكد هذا الأمر إذا تذكرنا أن الأسرى المسلمين الذين وقعوا في أيدي النصارى كان غالبهم من العامة الذين لا يملكون ثقافة كافية؛ ومن ثم يكونون عرضة للتأثر بالفكر النصراني أكثر من غيرهم.

ويضاف إلى ما سبق أن من طال مكثه بين ظهراني النصارى فإنه لا يؤمن عليه التأثر ببعض ما عندهم، كما هو الحال بالنسبة للنصارى الذي يعيشون بين

(١) لطفي عبد البديع، الإسلام في إسبانيا، ص ٢٧، ليفي بروفنسال، حضارة العرب في الأندلس، ص ٧٩.

(٢) أبو بكر ابن العربي، العواصم من القواصم، ص ٦١، الطرطوشي، سراج الملوك، ج ٢، ص ٥٨٩.

(٣) ابن رشد، فتاوى ابن رشد، ج ٢، ص ١٠٥٨ ـ ١٠٥٩.

ظهراني المسلمين، يقول ابن تيمية: «وقد رأينا اليهود والنصارىٰ الذين عاشروا المسلمين؛ هم أقل كفراً من غيرهم، كما رأينا المسلمين الذين أكثروا من معاشرة اليهود والنصارىٰ؛ هم أقل إيماناً من غيرهم ممن جرد الإسلام»(١).

كانت هذه أهم الأسباب الرئيسة لذلك الانهزام الفكري في عصر ملوك الطوائف، ومن الممكن أن يضاف إليها بعض العوامل والأسباب العامة التي وجدت في ذلك العصر، وفي العصور السابقة واللاحقة، حيث يرىٰ بعض الكتاب والمؤرخين أنها قاعدة مطردة، ومن أهمها:

١ ـ ما ذكره ابن خلدون من أن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونُظُمه وسائر أحواله وعوائده، وقد عزا هذا الأمر لأسباب معنوية ونفسية، منها نظرة الكمال التي ينظر بها المغلوب للغالب، أو لما ينتحله الغالب من عوائد ومذاهب هي في نظر المغلوب سبب قوته وغلبته(٢). ولو حاولنا رصد واقع المسلمين في عصر ملوك الطوائف حسب هذه القاعدة لتبين لنا أن بعضهم قد تأصل في نفوسهم هذا الأمر، وقد بدا هذا واضحاً في كثير من شؤون حياتهم ـ كما سنرىٰ إن شاء الله ـ وهذا بلا شك لم ينشأ من فراغ، بل جاء نتيجة مباشرة للإعجاب بالنصارىٰ الغالبين. كما ذكر ابن خلدون أن هذا الأمر واقع في الأمة الإسلامية وغيرها، ثم أكد أن ذلك وجد في بلاد الأندلس في عهده حيث قال: «حتىٰ إنه إذا كانت أمة تجاور أخرىٰ، ولها الغلب عليها، فيسري إليهم من هذا التشبه والاقتداء حظ كبير، كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقة؛ فإنك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم، وأحوالهم، حتىٰ في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت، حتىٰ لقد يستشعر من

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، ج ١، ص ٤٨٨.

(٢) ابن خلدون، العبر، ج ١، ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

ذلك الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء، والأمر لله»[١].

٢ ـ تأثير الزوجات ذوات الأصل النصراني؛ ذلك أن المسلمين من عرب وبربر حينما دخلوا البلاد الأندلسية ارتبطوا بعلاقات مصاهرة مع أهلها، كما عاشوا معهم متجاورين يعيشون في ظل الحكم الإسلامي بكل أمن وطمأنينة ما داموا يؤدون الجزية[٢]، ويرىٰ ابن بشكوال أن تلك الزيجات كانت عاملاً مهماً في هذا المجال، حيث قال: «ذكر أن من أقوىٰ أسباب تأثر المسلمين بالنصارىٰ مطاوعة الرجال للنساء في تقليد النصارىٰ، وانقيادهم لهن في ذلك عاماً بعد عام، حتىٰ رسخت في صدورهم وتصورت في عقولهم، وتاقت نفوسهم لبعض العادات والتقاليد النصرانية[٣].

٣ ـ تولي بعض النصارىٰ وظائف مهمة في الدولة الإسلامية، وهذا بلا شك كان له أسوأ الأثر علىٰ حياة الناس، كما كان سبباً قوياً في كسر الحاجز النفسي بين المسلمين والنصارىٰ؛ ولهذا حاول بعض الشعراء التنبيه علىٰ هذا الأمر، وبيان ما يتمخض عنه من آثار سلبية، ومن ذلك ما قاله الشاعر أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود التجيبي الألبيري (ت ٤٥٦ هـ)؛ إذ نظم قصيدة وجهها إلىٰ بربر صنهاجة يحرضهم فيها علىٰ عزل يوسف بن صمويل بن النغريلة الوزير اليهودي لملك غرناطة باديس بن حبوس، وقد جاء في مطلعها:

ألا قُل لصنهاجة أجمعين ... بدور الندى وأُسد العرينْ
لقد زلَّ سيدكم زلةً ... تقر بها أعين الشامتينْ
تخير كاتبه كافراً ... ولو شاء كان من المسلمينْ
فعزَّ اليهودية وانتخوا ... وتاهوا وكانوا من الأرذلينْ

---

(١) ابن خلدون، العبر، ج ١، ص ٢٥٩.
(٢) حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص ٤٢٣.
(٣) العزفي، الدر المنظم، ص ٢٨. (نقلاً عن ابن بشكوال).

ويذكر ابن الخطيب أن هذه القصيدة قد حركت نخوة صنهاجة ولاسيما أن ذلك الوزير قد مكن أهل ملته وأقصىٰ كثيراً من المسلمين عن الوظائف؛ فثاروا عليه وقتلوه كما قتلوا عدداً كبيراً من اليهود الموجودين في غرناطة، وذلك سنة ٤٥٩ هـ(١)، فلما مات هذا الوزير اليهودي اسْتَوْزَر باديس بن حبوس بعده وزيراً نصرانياً، فقال أبو القاسم خلف بن فرج السميسر أبيات شعر يستنكر هذا العمل، ومما جاء فيها:

فزماناً تهودا وزماناً تنصرا
وسيصبو إلى المجوس إن الشيخ عمّرا(٢)

أما صور الانهزام الفكري فقد بدت واضحة عند مسلمي الأندلس، ولو حاولنا استقصاءها لطال بنا المقام، وحسبنا هنا أن نذكر بعضاً من صورها ومظاهرها؛ فمن ذلك ما ذكره ابن بسام من أن مسلمي الأندلس بعد كارثة طليطلة هانت عليهم الرزية، كما لم يبالوا في إعطاء الدنية، حتىٰ تنصَّر بعضهم سواء من العامة أو من ضعاف النفوس من الفقهاء(٣)، وممن ظهر تنصُّره الفقيه أبو القاسم ابن الخياط حيث يذكر ابن سعيد نقلاً عن المسهب أن هذا الفقيه أقام خمسين سنة علىٰ العفاف والخير لا تعرف له زلة، فلما استولىٰ النصارىٰ علىٰ طليطلة حلق وسط رأسه، وشد الزنَّار(٤)، فقال له أحد أصحابه: أين عقلك؟ فقال: ما فعلت هذا إلا بعد ما كمل عقلي، وقال شعراً، منه:

تلون كالحرباء حين تلون وأبصر دنياه بملء جفونه
وكَلَّ إلى الرحمن يومي بوجهه ويذكره في جهره ويقينه

(١، ٢) الإحاطة، ج ١، ص ٤٤، وانظر أيضاً: الطاهر أحمد، دراسات أندلسية، ص ٦٩، ٧٥، انخل بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ١٠٧ ـ ١٠٨.
(٣) الذخيرة، ق ٤، ج ١ ص ١٣١.
(٤) الزنَّار: حزام يشده النصارىٰ علىٰ أوساطهم.

ولـو أن دينـاً كـان نـقـيـاً لخـالـقـي لما كـنـت يـومـاً داخـلاً في فـنـونـه[١]

ويبدو أن هذا التحول الخطير عند بعض مسلمي الأندلس، كانت له ظروفه النفسية التي عشعش فيها الضعف والانهزام، ثم ما لبث أن ظهر واضحاً للعيان؛ إذ لم يأبه أصحابه بإظهار انحرافهم على الملأ، حيث يذكر ابن عذارى أن كثيراً من مسلمي الأندلس أعجبوا بالنصارى وتوقعوا منهم الخلاص من مأزقهم الصعب؛ ولهذا فإنهم كانوا يحزنون لفراقهم[٢].

كما يذكر كل من ابن بسام[٣]، والمقري[٤] أن الشاعر أبا عامر أحمد بن شهيد[٥] بات ليلة بإحدى كنائس قرطبة، وقد فرشت بأغصان آس، وقَرْعُ النواقيس يُهيِّج سمعه، فقال واصفاً انطباعاته عن تلك الكنيسة:

ولـرُبَّ جـام قـد أدرت بـديـرة خمر الصبا مُزجت بصفو خُموره
في فتـيـة جعلوا الزِقَاقَ تكاءهم متـصـاغـرين تـخـشـعـاً لـكـبـيـره
وآلـى عـلـيَّ بـطـرفـه وبـكـفِّـه فـأمـال مـن رأسـي لـعـب كـبـيـره

(١) المغرب، ج ٢، ص ٢٢.
(٢) حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص ٤٢٣.
(٣) العزمي، الدر المنظم، ص ٢٨. (نقلاً عن ابن بشكوال).
(٤) الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١١.
(٥) هو أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن عمر بن محمد بن شهيد قال عنه ابن بسام: إنه شيخ الحضرة، وفتاها، ونادرة الفلك الدوار، وأعجوبة الليل والنهار، وكان من شعراء الأندلس المشهورين، ويعد من أعلم أهل الأندلس، وله مؤلفات منها: (كشف الدك وإيضاح الشك) أو (التوابع والزوابع)، توفي سنة ٤٢٦ هـ.
وعلى الرغم من أن ما قاله ابن شهيد حول النصرانية كان بسبب ولعه بعشيقته النصرانية نويرة أو جميلة كما يسميها بعضهم، إلا أن هذا لا يعفيه، فمصلحة الدين فوق كل مصلحة.
ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ١، ص ١٩١، ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ٧٨-٨٠، الحميدي، جذوة المقتبس، ص ١٢٤، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ١١٦-١١٧، ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج٣، ص ٢٢٠.

وترنَّم الناقوسُ عند صلاتهم ... ففتحتُ من عيني لرَجْع هديره
يُهدي إلينا الراحَ كلّ معصفرٍ ... كالخشف خفره التماح خفيره

وعلى الرغم من هذا الضلال المبين الذي وقع فيه ابن شهيد فإنه قد أدرك بعض مظاهر الانهزام الفكري، وذلك حينما نادى بضرورة العودة إلى اللغة العربية والتحدث بها؛ لـمَّا رأى أن كثيراً من مسلمي الأندلس قد تساهلوا فيها، وأخذوا يتكلمون بلغة غير الفصحى؛ حيث أصبح لسانهم «ليس لسيبويه فيه عمل، ولا للفراهيدي إليه طريق، ولا للبيان عليه سمة؛ إنما لكنة أعجمية يؤدون بها المعاني تأدية المجوس والنبط»(١).

كما أن الشاعر محمد بن أحمد بن الحداد لم يخجل من إظهار إعجابه بالنصارى وهم يؤدون طقوسهم الدينية حيث قال:

وقد تلوا صحف أناجيلهم ... بحسن ألحان وأصوات(٢)

كما لم يستح الشاعر من التردد على الكنيسة من أجل عشيقته النصرانية، وفي هذا يقول:

أمولعتي بصُلبانٍ ... ورُهبانٍ ونساك
ولم آت الكنيسةَ عن ... هوى فيهنَّ لولاكِ(٣)

ولقد كان لهذا الانهزام الفكري أمام النصارى آثاره السلبية على المسلمين، والدين الإسلامي هناك، حيث يذكر ابن عذارى أنه في مستهل ذلك العصر «بلغ من استخفاف أهل قرطبة بالإسلام أن رجلاً نصرانياً وقف في أعظم شوارع قرطبة فقال . . . ـ ونال من النبي ﷺ وشرفه وكرمه ـ فلم يكلمه أحد منهم بكلمة،

---

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ١، ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩.
(٢) المصدر السابق، ق ١، ج ٢، ص ٧٠٥.
(٣) المصدر السابق، ص ٧٠٧.

فقال رجل من المسلمين غيرة للنبي ﷺ: ألا تنكرون ما تسمعون؟ أما أنتم مسلمون؟ فقال له جماعة من أهل قرطبة: امض لشغلك. وكان الإفرنج إذا سمعوا الأذان للصلاة يقولون قولاً لا يُذكر فلا يعترض عليهم أحد بشيء»(١).

كما ذكر ابن حزم أن إبراهيم بن سيار النظام رأس المعتزلة - مع علوّ منزلته العلمية، ولا سيما في علم الكلام - ألف كتاباً في تفضيل التثليث على التوحيد؛ وذلك من أجل إرضاء فتى نصراني كان قد أولع به(٢)، وقد علَّق ابن حزم على هذا العمل المشين مبيناً أنه كان من أسباب ضعف الوازع الديني الحرص على الوصول إلى الملذات والشهوات، حيث قال: «فيا غوثاه! عياذك يا رب! من تولج الشيطان ووقوع الخذلان، وقد يعظم البلاء، وتكلب الشهوة ويهون القبيح، ويرق الدين حتى يرضى الإنسان في جنب وصوله إلى مراده بالقبائح والفضائح»(٣).

ويبدو أن هذا الانهزام الفكري إلى جانب الانهزام العسكري الذي مني به مسلمو الأندلس في عصر ملوك الطوائف كان من الأسباب القوية التي جرأت النصارى على دعوة المسلمين إلى الديانة النصرانية، ولم يكن هذا الأمر خاصاً بالعامة من الناس بل تعداهم إلى بعض قادة المسلمين، ومما يذكر في هذا تلك الدعوة التي تلقاها المقتدر بالله ابن هود صاحب سرقسطة والتي وهبها إليه راهب فرنسي يدعى القديس هيو (St. Hugh) كبير رهبان دير (CLUNV)؛ حيث بعث برسالة لهذا الغرض إلى المقتدر بالله ابن هود مع راهبَيْن فرنسيَّيْن، كما طلب منهما أن يشرحا لابن هود الديانة النصرانية وما فيها من مزايا.

ويبدو أن هذه الرسالة وما سبقها من رسائل مماثلة لم تخرج من فراغ، وإنما دفع النصارى إلى إرسالها لزعيم المسلمين في منطقة الثغر الأعلى طمعهم في

(١) البيان المغرب، ج٣، ص ٩٨.
(٢) طوق الحمامة، ص ١٣٠.
(٣) المصدر السابق، ص ١٣٠.

تنصره؛ لما أبداه من ضعف أمامهم وموالاة ظاهرة لهم، أثناء خلافه مع أخيه، كما توحي بذلك بعض عبارات تلك الرسالة التي جاء فيها:

«إلىٰ الصديق الحبيب الذي نؤمله أن يكون خليلاً مدانياً المقتدر بالله.

إن القادر علىٰ الكل الذي اصطفىٰ أولياءه قبل خلق العالم، ولم يسبق في علمه هلاكهم، قد أنار قلبك، وأشعره للإيمان بالإله المسلم لك وهو الرحمن الرحيم الغفور الذي يهديك لمعرفته... ولن يسعنا أن نتراخىٰ عن الاجتهاد في تتميم هذه المصلحة - بجميل معونته - لتشترك معنا في ملكوته إن آثرت ذلك؛ ولهذا الأمر أشخصنا إليك من إخواننا من يورد عليك كلاماً إلهياً، ويشرحون لديك حقيقة دين النصارىٰ، ويقررون عندك معرفة المسيح سيدنا الذي لا ينبغي لنا الإيمان بأحد سواه، ولا نرتجي النجاة إلا به...

فاعتبر - أيها الملك الشريف - ولا تؤثر علىٰ نجاة نفسك يوم الحكم والجزاء،... ومتىٰ قبلت قولنا، وعملت برأينا، وتقررت عندنا إجابتك إلىٰ ما ندعوك إليه من قبول كلمة النجاة الدائمة التي نعرضها عليك لم نتوقف عن الالتحاق بك»(١).

هذه نماذج مما جاء في تلك الرسالة، وهي دعوة صريحة إلىٰ الدخول في الديانة النصرانية، وترك الدين الإسلامي؛ فماذا كان موقف ابن هود منها؟ هل استجاب لها فانخلع من الدين الإسلامي ليدخل في الديانة النصرانية؟ وللإجابة عن هذا التساؤل يقال: إنه علىٰ الرغم من ضعف المقتدر بالله ابن هود أمام النصارىٰ فإن موقفه من تلك الرسالة كان جيداً وقوياً، فقد استقبل الرسولين النصرانيين وسمع منهما ما يحملانه من مغالطات، وأقاويل باطلة حول الديانتين الإسلامية والنصرانية، كما تسلم منهما الرسالة، ثم عهد إلىٰ القاضي أبي الوليد

(١) انظر رسالة راهب فرنسا إلىٰ المسلمين، وجواب القاضي أبي الوليد الباجي عليها (دراسة وتحقيق الدكتور محمد عبد الله الشرقاوي)، ص ٤٩ - ٥٣.

الباجي[١] الذي كان يعيش في سرقسطة في تلك الفترة بالرد عليها.

وقد جاء رد أبي الوليد الباجي على الرسالة مطولاً حيث بيَّن في البداية أن مبعث الاهتمام برسالة الراهب ورسله، إنما كان لما له من مكانة عند أهل ملته[٢]، ثم بعد ذلك تتبع كل الأفكار الواردة في الرسالة النصرانية بالإيضاح أو التفنيد، والرد عليها من منطلق شرعي أو عقلي، وفي ختام الرسالة دعاه إلى الإسلام حيث خاطبه بقوله: «فإن قبلت نصحي وسمعت موعظتي أخرجناك - بعون الله - من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ومن حيرة الشك إلى تيقن الحق... وإن أَبَيْت إلا الاستكبار والعتو، والإصرار والغلو والإلحاد... فإنك لن تعجز ربك، ولن تنجو من ذنبك»[٣].

هكذا كان موقف ابن هود من تلك الدعوة النصرانية، ونستوحي من خلال قراءة رسالة ابن هود أن تلك الدعوة من قبل الراهب الفرنسي لم تكن الرسالة الأولى والوحيدة، بل سبقتها رسائل أخرى؛ حيث جاء في رسالته ما يشير إلى ذلك مثل قوله: «وقد كان ورد علينا قبل هذا كتابك... ولما تكررت علينا رسائلك ورسلك تعينت علينا مفاوضتك فيما رضينا من مسألتك»[٤].

---

(١) أبو الوليد الباجي هو سليمان بن خلف بن سعد التجيبي الأندلسي الباجي نسبة إلى مدينة باجة الأندلسية، ولد سنة ٤٠٣ هـ، بمدينة بطليوس. ويعد الباجي من علماء الأندلس المشهورين؛ فهو فقيه، وأديب، وشاعر، وقد قيل عنه بأنه فقيه الأندلس وإمامها، رحل في أول عمره إلى بلاد المشرق لطلب العلم، فلما عاد إلى الأندلس سنة ٤٤٠ هـ وجد المسلمين هناك قد ابتلوا بالفُرقة بعد سقوط الدولة الأموية؛ فأخذ يدعو المسلمين إلى الوحدة ولمِّ الشمل، حيث تنقل بين العديد من المدن والولايات الأندلسية لهذا الغرض، حتى توفي - رحمه الله - سنة ٤٧٤ هـ.
(ابن خاقان: قلائد العقيان، ج ٢، ص ٤٠٨ - ٤٠٩، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٦٣٥، العماد الأصفهاني، خريدة القصر، ج ٢، ص ٤٩٩، ابن بشكوال، الصلة، القسم الأول، ص ٢٠١).

(٢) رسالة راهب فرنسا، تحقيق محمد الشرقاوي، ص ٦٣.

(٣) المصدر السابق، ص ٩٩ - ١٠٠.

(٤) المصدر السابق، ص ٦٤ - ٦٥.

ولكن مع كل هذه المحاولات، فقد خيب ابن هود ظن النصارىٰ فيه علىٰ الرغم من التنازلات الكبيرة التي قدمها لهم قبل ذلك في المجالات السياسية، والعسكرية والمادية، ولا أستبعد أن يكون لأبي الوليد الباجي أثر قوي في توجيه المقتدر لتلك الوجهة السليمة الموفقة في الرد علىٰ تلك الدعوة النصرانية المغرضة.

وإزاء هذا الانهزام الفكري لم يقف علماء المسلمين مكتوفي الأيدي، بل حاولوا التصدي لذلك الضعف ومحاربة تلك الظاهرة التي أخذت تغزو المجتمع الإسلامي؛ وذلك ببيان ما يحمله الفكر النصراني من مغالطات وأوهام لا يقرها الإسلام، ولا يقبل من المسلمين السكوت عليها، فضلاً عن قبولها أو إظهار الإعجاب بها، وكان ممن برز في هذا الميدان أبو محمد بن حزم (٣٨٤ـ٤٥٦ هـ) فقد ألف كتابه المشهور (الفصل في الملل والأهواء والنحل)؛ حيث يعد هذا الكتاب تاريخاً نقدياً تحليلياً للأديان والفرق والمذاهب؛ إذ قام هذا المفكر بخوض معركة فكرية مع اليهود والنصارىٰ وغيرهم من أصحاب الملل، ناقش فيها أهم معتقداتهم، كما بيَّن ما تحمله من انحرافات ومغالطات، وذلك بأسلوب علمي فريد اعتمد فيه علىٰ العقل والنقل، ومما ساعده في ذلك معرفته باللغة اللاتينية حيث تعمق في قراءة الإنجيل والتوراة فأدرك ما فيهما من تحريف؛ وهذا مما مكنه من تفنيد ومناقشة لأصول تينك الديانتين[١]، وبالإضافة إلىٰ ذلك فقد رد علىٰ ابن النغريلة اليهودي، كما ألَّف قصيدة طويلة في الرد علىٰ نقفور[٢] ملك الروم.

---

(١) انخل بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٢٢٢ـ٢٢٣، رجب عبد الحليم، العلاقات، ص ٤٤٨.

(٢) كان (نقفور فوكاس) إمبراطور الروم (٣٥٢ـ٣٦٠ هـ/ ٩٦٣ـ٩٦٩ م) شديد الحقد والكراهية للدين الإسلامي، وكان يقيم في بلاطه أحد الأدباء من المسلمين فارتد عن الإسلام، فأشار عليه نقفور أن ينظم قصيدة للنيل من الإسلام والخليفة العباسي المطيع لله (٣٣٤ـ٣٦٣ هـ/ ٩٤٦ـ٩٧٤ م). (السبكي، طبقات الشافعية، ج٣، ص ٢١٤ـ٢١٥، عمرو فروخ، ابن حزم الكبير، ص ٨٦). عبد الحليم عويس، ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي، ص ١١٩.